مقاربة سوسيولوجية للحركات الاحتجاجية للشباب في العالم العربي
A sociological analysis of the protests of the youth in the Arab world

د. عبد الواحد غبيبي، جامعة القاضي عياض مراكش –المغرب

ملخص: يهدف هذا المقال إلى الإجابة عن سؤال مركزي مرتبط بسيرورة الحركات الاحتجاجية لدى الشباب بالعالم العربي بدءا بالأسر إلى الأنظمة الحاكمة، فقد تمت ملاحظة كثير من الارتباك في فهم وتفسير هذه الحركات كفعل اجتماعي، وهذا راجع في تقديري إلى أنها كانت خارجة عن التوقع، والتوقع يُبنى على الأدوار والنماذج الاجتماعية. ومن هنا، سيتناول التحليل القطائع التي بادرت إليها هذه الحركات من خلال إطار نظري سوسيولوجي يهدف إلى الفهم من أجل التفسير، والمفاهيم المحورية لهذا المقال هي: التوقع، الدور، النماذج والرموز الاجتماعية، والفعل الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: التوقع، الدور، النماذج والرموز الاجتماعية، الفعل الاجتماعي.

Abstract: This paper will try to answer a central question having to do with the protests conducted by young people in the Arab World starting from the family to the whole system. A lot of confusion has been noticed in relation to understanding and explaining these protests as social actions. This is due in my opinion, to the fact that these protests were not expected. Expectations are usually built on the social roles and models. That is why this paper will try to analyze the ruptures undertaken by these movements through the concepts of expectation, role, models and social symbols, and social action.

Key words: expectation, role, models and social symbols, social action.

مقدمة:

عرف ويعرف العالم العربي عدة حركات احتجاجية، انطلقت شرارتها الأولى يوم 14يناير2011 من تونس، وبالضبط من سيدي بوزيد، تجمع سكاني بسيط يبعد بحوالي 265كلم من العاصمة وسط غرب البلاد. هذه الحركة الاحتجاجية سرعان ما تحولت إلى ثورة أطاحت برأس نظام قوي حكم البلاد لمدة23 سنة بقبضة من حديد، وحولها إلى دولة بوليسية يلعب فيها جهاز المخابرات التابع لرئيس الجمهورية دورا أساسيا، كما هيمن هذا الجهاز على كافة مؤسسات الدولة (الاقتصادية، السياسية، القضائية).

وشهدت مصر أيضا في25يناير2011 نفس الأحداث مع اختلافات مهمة إلا أنها لا تمس الجوهر. وانتهت هي الأخرى بالإطاحة برأس النظام. ثم تلتها ليبيا ثم اليمن وسورية، سنتطرق إلى الشيء المشترك بين هذه الحركات، والذي نعتبره جوهرها:

- كان هناك إجماع من طرف النخب ووسائل الإعلام أن الشباب هم من قاموا بهذه الحركات، الشيء الذي جعل الكل يصطلح عليها؛ "بهَبَّة أو انتفاضة أو ثورة الشباب"،

-التنسيق لهذه الحركات والمطالب التي رفعت فيها تمت عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي"فايس بوك، تويتر..."،

-العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي كانت تتم بين هؤلاء الشباب، كانت في جزءها الأكبر، تتم داخل ما يصطلح عليه ب"العالم الافتراضي"،

-هذه الحركات الشبابية كانت في أغلبها غير متوقعة بالنسبة للنخب بمختلف مشاربها. حيث بدا الارتباك واضحا في تعاطيها مع هذه الظاهرة،

-يصرح هؤلاء الشباب عبر وسائل الإعلام أنهم غير منتمين لأي تنظيم سياسي أونقابي أوغيرهما(حسب ما بلغ إلى علمنا)[1].

إن أغلب التنظيمات السياسية ومكونات المجتمع المدني داخل هذه المجتمعات ظلت متخلفة عن هذه الحركات الاحتجاجية ولم تلتحق بها وبمطالبها حتى آخر لحظة، عندما اتضح لها أن هذه الحركات تنتزع المطلب تلو الآخر، بل إن هذه الحركات، بعد اعتراف الأنظمة بها، أبت أن تتراجع إلا بعد سقوط رؤوس هذه الأنظمة تماما، والسبب في هذا التردد-في نظري-هو أن النخب لم تتوقع أن يكون الشباب قادرين على المضي إلى أبعد الحدود في المطالبة بحقوقهم، ومن هنا تكون المفاهيم المحورية لهذا المقال هي: التوقع، الدور، النماذج والرموز الاجتماعية، والفعل الاجتماعي، ومن خلال هذه المفاهيم سنحاول مقاربة هذه الحركات الاحتجاجية/الثورات انطلاقا من إطار نظري سوسيولوجي يهدف إلى الفهم من أجل التفسير.

1. التوقع attente

يلعب التوقع، الذي يُعتبر مفهوما مركزيا في السوسيولوجيا، دورا أساسيا في استمرار تماسك الحياة الاجتماعية كما يحيل بالنسبة للأفراد والجماعات المتفاعلة فيما بينها على الانتماء إلى نفس الثقافة. ونقصد هنا الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي، أي كنسق من القيم والمعايير والرموز والنماذج. وهكذا فإن التوقع مبني بالأساس على هذا النسق السوسيوثقافي. فكل وضع اجتماعي statut social داخل المجتمع يقابله دور، من حيث كونه،«نسقا من الإكراهات المعيارية[2] بتعبير رالف لنتون» (Boudond.R, Bourricaud.F, 2011, p505)، وهذا الدور يكون محددا

[1] - هذه الملاحظات تم استقاؤها من خلال تتبعنا لسيرورة هذه الحركات الاحتجاجية عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام.

[2] - systèmes de contraintes normatives

ثقافيا وتنظيميا، وأي انحراف عن عناصر النسق السوسيوثقافي يجعل السلوك أوالفعل الاجتماعي خارج التوقع. ومن ثم يعرض صاحبه إلى عقوبات اجتماعية sanctions sociales وهكذا يصبح المجتمع يمارس القهر الاجتماعي la contrainte sociale على أفراده وجماعاته.

2. الدور كنسق من الإكراهات المعيارية

إن الحديث عن الأدوار الاجتماعية يقتضي استحضار النماذج الاجتماعية، لأن «النماذج الخاصة بوظيفة أو موقع، داخل جماعة ما، هي التي تكون الدور الاجتماعي» (Guy Rocher,1968, p46)، أي أن لكل وضع اجتماعي statut social، نموذجا ثقافيا يشكل الإطار المرجعي للدور.

والدور الاجتماعي حسب ميكييللي Mucchilli هو عبارة عن «مجموع المواقف والسلوكات L'ensemble des conduites et des attitudes»(A, 1994, p14 . Mucchill). وهذا يعني أن السلوكات والمواقف خاضعة بدورها للقيم والمعايير الاجتماعية، وبالتالي فإن النماذج ما هي في الأصل إلا صورة للقيم والمعايير، أي صورة للنسق الثقافي عموما.

إن الانخراط في القيم والمعايير والنماذج الاجتماعية، يضفي الطابع الرمزي على الانتماء إلى مجتمع أو جماعة ما. ونتيجة لذلك فإن « عالم النماذج والقيم يظهر لنا كعالم شاسع من الرموز، يتحرك داخله الفاعلون الاجتماعيون، المجموعات والجماعات» (Guy Rocher,1968, p87) ومن دون أن نبالغ، يمكن القول أن الفعل الاجتماعي كله رموز، فهو اجتماعي«لأنه مليء بالرموز، إن الرمزية مكون أساسي للفعل الاجتماعي، وهي أحد ركائزه الأساسية» (Ibid, P88)وفهم الرموز يساعدنا في تفسير الأفعال الاجتماعية.

3. الفعل الاجتماعي:

يعتبر ماكس فيبر أن الفرد واع بأفعاله، من هذا المنطلق يرى أنه على الباحث السوسيولوجي أن يهتم بهذه الأفعال الاجتماعية لفهم و تفسير ما يقع في المجتمع من ظواهر، وهكذا يقترح ماكس فيبر أربع نماذج مثالية تساعد في تحليل الأفعال الاجتماعية: الفعل العقلاني بحسب الهدف، الفعل العقلاني بحسب القيمة، الفعل العاطفي، والفعل التقليدي(Aron. R,1967, p500-501)، لكن المهم بالنسبة لماكس فيبر هو أنه على الباحث أن يحل محل الفاعل، أي أن يستحضر النسق السوسيو ثقافي الذي ينتمي إليه هذا الأخير، على اعتبار أن قيم و معايير النسق السوسيوثقافي هي التي تؤطر الفعل الاجتماعي وتحدد معناه ومقصديته، ومن هنا يتمكن الباحث من فهم الظاهرة الاجتماعية وتفسيرها عن طريق التأويل.

إن هذه الاتجاهات السوسيولوجية رغم تباينها اتفقت حول نقطة أساسية**:** أهمية النسق السوسيوثقافي (قيم، معايير، رموز) في توجيه سلوك وتصرفات وأفعال الأفراد.

والخطاطة التعبيرية لرالف لنتون تلخص هذه النتيجة:

الخطاطة التعبيرية لرالف لانتون

شكل رقم : 1

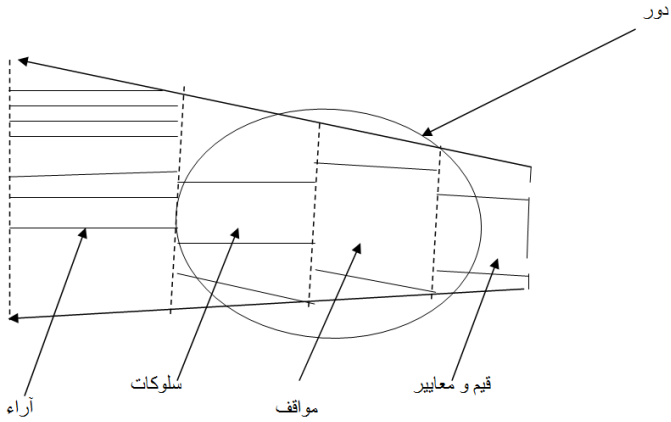

المصدر: (Mucchielli. Alex,1994, p18)

ومن هذا المنطلق، إذا أردنا تفسير فعل الاحتجاج الذي قام ويقوم به الشباب سواء في تونس أو مصر أو اليمن أو البحرين أو السعودية أو سورية أو المغرب أو الجزائر...، فلابد من استحضار القيم والمعايير والنماذج والرموز الثقافية التي توجه هذا الفعل وتحدد معناه ومقصديته، حتى يتأتى لنا فهمه ثم تأويله، ويمكن استقراء بعض هذه القيم والنماذج والرموز من خلال الشعارات التي رفعت في هذه الحركات وتصريحات الشباب لوسائل الإعلام، وكذا رسائلهم الإلكترونية. هذه القيم هي: الكرامة، الحرية، المساواة، الديمقراطية، محاربة الفساد، التغيير.

كيف يمكن تفسير المطالبة بمثل هذه القيم في مجتمعات تحكمها بنيات تقليدية قيمها مضادة لهذه الأخيرة، حتى عندما تدعي الأنظمة الحاكمة في هذه المجتمعات أنها تتبنى هذه القيم الحداثية فهي في الواقع لا تتجاوز بنيتها مع هذه البنيات التقليدية، التي جاءت هذه القيم أصلا لخلق قطائع معها.

إن هذه القيم التي استغرقت قرونا لتتبلور في الغرب، أصبحت سهلة التنقل من مجتمع إلى آخر بفضل الثورة المعلوماتية، وأصبحت قيم الحداثة هذه مكونا أساسيا في سيرورة التنشئة الاجتماعية لهؤلاء الشباب، فتغيرت بذالك نظرتهم لذواتهم، ونظرتهم للأخر، ونظرتهم للعالم مقارنة مع الجيل السابق (جيل الآباء)، وهذا هو جوهر الحداثة. ولقد نتج عن هذه السيرورة مجموعة من القطائع شكلت في حد ذاتها عدة ثورات.

الثورة الأولى بدأت داخل الأسرة: فقد أصبحنا نلاحظ تباينا كبيرا في قيم ومعايير الأبناء والآباء. إذ نجح الأبناء، بعد عدة اصطدامات، في فرض قيمهم داخل أسرهم. ففي عصر العولمة، تقلص دور الأسر، وأضحت وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعية ومؤسسات أخرى هي من يتحكم في التنشئة الأولية للأطفال، وهكذا "انتقلت الأسرة من مؤسسة مركزية إلى مؤسسة محيطية» (جسوس. محمد، 2003، ص161)، وهذا يعني بالطبع استدخال قيم ومعايير النسق السوسيوثقافي للعولمة، لتشكل البنية المعيارية للشخصية، وعلى أساسها يتم:

أ. التفاعل مع المجتمع بمختلف مكوناته،
ب. تحقيق الوحدة السيكولوجية l'unité psychologique عند الأفراد، حسب ألبور غوردن Allport Gordon (Guy Rocher,1968, p86).

الثورة على مستوى المدرسة: في المرحلة الثانية من سيرورة التنشئة الاجتماعية، انتقلت هذه القيم والمعايير والرموز المستدخلة إلى المدرسة، باعتبارها المؤسسة الاجتماعية الثانية بعد الأسرة في عملية التنشئة، لتخلق قطائع مع نسق سوسيوثقافي كان سائدا داخل المدرسة، تسود فيه العلاقة الأبوية بين المدرّس والتلميذ، أي علاقة الشيخ والمريد(حمودي عبدالله، 2003). إذ يعتبر المدرّس هو مصدر المعلومة، وصاحب السلطة داخل الجماعة النظامية. الشيء الذي نتج عنه علاقة عمودية وذات اتجاه وحيد: مدرس====>تلميذ، ومن هنا أصبحت العلاقة بين هيئة التدريس والإدارة التربوية من جهة، والتلاميذ من جهة أخرى متوترة، وتؤول في كثير من الأحيان إلى عنف يعاني منه الطرفان، وهذا مؤشر حسب بول لازارسفيلد (Lazarsfeld, 1970) على نشوء شخصية ذات بنية معيارية مختلفة تماما عن مُقابِلَتِها لدى الجيل السابق.

الثورة على الأنظمة الحاكمة: نجد داخل المجتمعات التقليدية، حسب ماكس فيبر، النموذجين غير العقلانيين لمشروعية السلطة وهما: النموذج الكارزماتي؛ حيث يستمد الحاكم شرعية سلطته من صفات تميز شخصيته عن المحكومين، وتجعل هؤلاء يعترفون له بالسلطة ويتماهون مع شخصيتهK والنموذج التقليدي؛ الذي تتحول فيه التقاليد إلى رأسمال رمزي يخدم سلطة الحاكم ويحد من حرية الأفراد، بل لا يعترف بهم على الإطلاق (Aron. R, 1967, p 556-557)، والتفاعلات التي تتم داخل هذين النموذجين من السلطة مبنية على أفعال عاطفية وأفعال تقليدية، تجد مرجعيتها في نسق سوسيوثقافي تقليدي تسود فيه قيم ومعايير تقليدية (الجماعة على حساب الفرد/holisme، بالإضافة إلى سيادة علاقة الولاء والطاعة)، وهذا ما يفسر اتساع الهوة بين هذه الأنظمة و بين الشباب الذي تكونت لديه شخصيات ذات بنية معيارية قوامها قيم ومعايير الحداثة(المواطنة، الحرية، الكرامة، الديمقراطية، المشاركة، التشارك، الشفافية، التغيير)، وهكذا انطلقت الثورة في مرحلتها الثالثة، مُحاولة خلق قطائع مع هذه البنيات التقليدية، البنيات التي تستند عليها مشروعية الأنظمة الحاكمة.

ويمكن ضرب مثل لهذه القطائع من خلال الشعارات التي رفعت في الحركات الاحتجاجية والتصريحات التي أدلى بها الشباب لوسائل الإعلام. فكلها تعكس تشبع هؤلاء بقيم الحداثة. ومن جهة أخرى يمكن تفسير رفض هؤلاء الشباب الانضواء تحت ألوية تنظيمات المجتمع المدني والسياسي بعاملين اثنين، نرى أن أحدهما يكمل الآخر:

-هذه التنظيمات، رغم إدعائها تبني قيم الحداثة فإنها في الواقع تمت تبيئتها في المجتمعات التقليدية لتتماشى مع النسق السوسيوثقافي التقليدي السائد. فأصبحت تشتغل هي الأخرى وفق ثقافة "الشيخ والمريد"، لتتحول إلى زوايا وعائلات ممتدة، تتمركز السلطة داخلها في يد الشيخ/الأب، ويتحول المنخرطون إلى مريدين/إخوة. فعوض أن تحدث هذه التنظيمات قطائع مع النسق السوسيوثقافي التقليدي، نجدها تكرسه أو تلبسه لبوسا جديدا.

-أما العامل الثاني فيتجلى في رفض هؤلاء الشباب للزعامة بمعناها التقليدي. فالقيادة داخل هذه الحركات الشبابية منتشرة بين كافة الشباب، حيث نجد أن كل شاب يعتبر نفسه "زعيما". والزعيم/القائد الفعلي الذي يتحكم في هذه القيادة الجماعية هو قيم هذه البنية المعيارية لشخصية الشباب.

ومن خلال هذا التحليل يتضح لنا بشكل جلي أن العالم الاجتماعي الذي يعيشه الشباب يخالف العالم الذي يعيشه الجيل السابق، فالشباب يعيش في عالم مستقل له معاييره وقيمه ورموزه الخاصة، كما له وسائل التواصل الخاصة به، وسائل التواصل هذه لا تعرف ولا تعترف بالحدود

ولا الانتماءات، ولا الأعراق، كما أن المهام التي تؤديها تتجاوز مهام التواصل، ولا نبالغ إن قلنا أنها خلقت عالما "افتراضيا "يحمل هؤلاء الشباب هويته. حيث يمكن أن نسبغ عليهم صفة مواطني الانترنت netizens كما قال دافيد كريستال David Crystal، ويتكلمون لغة الأنترنت netspeak (Crystal. D, 2004). ويحملون قيم هذا العالم مثل السرعة والوضوح والتغيير، هذه القيم تحتل مرتبة عليا في سلم قيم هذا العالم حيث لا تجد قيم النسق السوسيوثقافي التقليدي مكانا لها.

خاتمة:

ومن ثمة فإن هذه الحركات الشبابية التي بدت في البداية أنها مجرد احتجاجات (الاحتجاج يعترف ضمنيا بالسلطة للنظام) هي في الحقيقة ثورات؛ بدأت داخل الأسر أولا فخلقت قطائع مع القيم والمعايير التي كانت تحكمها، لتنتقل في ما بعد إلى المؤسسة الاجتماعية الثانية وهي المدرسة (النظام التعليمي)، وتفرض عليها ثقافة جديدة. وما انتقالها إلى المستوى الثالث، أي على مستوى الأنظمة الحاكمة، إلا تتويج للمرحلتين السابقتين، إذا هذه الثورة في نهاية التحليل هي ثورة على النسق السوسيو ثقافي التقليدي.

قائمة المراجع:

1. جسوس. محمد(2003)، رهانات الفكر السوسيولوجي بالمغرب، ط. الأولى، منشورات وزارة الثقافة، المغرب.

2. حمودي. عبدالله(2003)،الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة: جحفة. عبد المجيد، الطبعة الثالثة، دار تبقال للنشر، المغرب.

3. Aron. Raymond(1967), les étapes de la pensée sociologique, Gallimard, Paris.

4. Boudond.Raymond, Bouricaud. François(2011), Dictionnaire critique de la sociologie, 7°édition, Quadrige, Paris.

5. Crystal. David(2004), Language and the Internet, Cambridge University Press.

6. Guy. Rocher(1968), l'action sociale, Editions HMH.

7. Lazarsfeld .Paul(1970), Qu'est-ce que la sociologie ?, Gallimard, UNESSCO.

8. Linton. Ralph(1986), Le fondement culturel de la personnalité, Dunod, Paris.

9. Mucchielli .Alex (1994), La psychologie sociale, Editions, Hachette, Paris.

10. Bagur T. et Portocallis G(Avril 2017), « L'individu et l'interaction, entre rôle social et identité », Revue Européenne de Coaching, Numéro 2.